الدكتور سالم الحمدانى

المنهج العلمي بين الجاحظ وابن خلدون

صلتي بهذا البحث بعضها قديم ، يرجع الى ايام دراسة الماجستير ، حين كانت كلية الآداب بجامعة القاهرة ، تقضي الالمام بعبقرية ابن خلدون ، شرطا لاجتياز امتحان السنة الاولى فيها . وقد وقفت حينئذ على شيء كثير من جوانب فكر الرجل ، في ثقافته وعبقريته يتمثل بالنظريات الاجتماعية التي لاتزال جامعات الشرق والغرب تعتمدها الى الآن .

أما الجانب الآخر الذي يصلني بهذا الموضوع فهو جديد ، بدأ حين عهد الي تدريس (البيان والتبيين) للجاحظ في السنة الرابعة بقسم اللغة العربية ، فقد كان لابد ان احيط بفكر الرجل من جوانبه المختلفة ، لا من خلال هذا الكتاب فحسب ، بل من خلال كتبه الأخرى ، وعلى الأخص كتاب الحيوان .

وحين اطلت الوقوف على هذا الكتاب شدني اليه ما شدني الى مقدمة ابن خلدون . وعدت بذاكرتي الى سنين مضت ، فاذا الاثنان يلتقيان في أكثر من جانب ، ولكن أساس هذا اللقاء في ما رأيت ، المنهج العلمي الذي جمع بين العقلين الكبيرين .

واذا كان منهج البحث هو الطريق الذي يصل به الباحث الى الحقيقة ، وانه يستخدم في الوصول اليها وسائل معينة يقف بها على حقائق الامور ، فما اجدر ان يكون لكل من الجاحظ وابن خلدون منهج يقوم على التفكير العلمي الى حد ما . واقول الى حد ما لأحتاط من بعض ما يوجه من نقد الى الرجلين فيما توصلا اليه من الحقائق ، اذ لابد من ملاحظة بعد المسافة الزمنية التي تفصل بين عصرنا وعصر هذين المفكرين (١) . فقد مات الجاحظ في منتصف القرن الثالث الهجري ، بينما ودع ابن خلدون الحياة في (٨٠٨هـ) فاذا علمنا ان (بيكون) العالم الفرنسي الذي استمد الكثير من قضايا الطبيعة مما تركه الجاحظ عاش في القرن السابع عشر الميلادي ، وان (اوجست كونت) الذي اعتمدت نظرياته في علم الاجتماع على ماقرره ابن خلدون في هذا العلم ، قد عاش حتى مفتتح القرن التاسع عشر ، ادركنا ضخامة العقل وروعة الفكر الذي دفع بي الى الربط بين الرجلين . وقد يكون السؤال معقولا ومقبولا ، اذا تذكرنا انهما لايجتمعان على اختصاص واحد فقد اختص ابن خلدون بكتابة التاريخ ، واشتهر بمقدمته المعروفة ، بينما عرف الجاحظ عن طريق (البيان والتبيين) وبواسطة كتاب (الحيوان) والبخلاء والكتب التي لاتمت بصلة في اكثرها الى التاريخ ، فالأول اقرب الى ان يكون مؤرخا ، والثاني اكثر ميلا الى الأدب منه الى أي شيء آخر ، ويكون الرد حينئذ ، ان القصد من البحث ليس المقارنة

---

(١) انظر : علي عبد الواحد وافي : عبقريات ابن خلدون ص ٢٠٦ .
وجورج غريب : الجاحظ ص ٦١ .
ومحمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣٤٦

بين جوانب التخصص وأنواع المعارف عند الرجلين ، فذلك مما يختلف فيه أحدهما عن الآخر ، فابن خلدون هدف الى تخليص بحوث التاريخ مما اصابها من ضعف وبعد عن الحقيقة ، وتجاهل لنواميس الكون والطبيعة وتطور حياة المجتمعات الانسانية من جيل الى جيل ، ووصلت به هذه البحوث الى جملة من النظريات الاجتماعية والفلسفية التاريخية ، فكان مـقياسه في ذلك عقل علمي وبحث يعتمد على التجربة والمشاهدة ورفض لواقع التفكير السائد في عصره . ومن هنا اعتبره الباحثون (سابقاً لعصره ، وانه اصدق شاهد على عبقريته وعلى اتجاهه العلمي في دراسة المجتمع ، انه حدد الطريقة في علم الاجتماع واهتدى الى كشف عن كثير من حقائق هذا العلم) (٢) واما الجاحظ فقد توصل بشغفه العلمي وعقله الفذ الى جملة من التجارب التي اسمح لنفسي ان اسميها (تجارب مختبرية) وذلك من خلال حس دقيق وملاحظة عميقة وتجربة علمية يستخدم في سبيلها كل ماوقع تحت يده من وسائل حسية ومشاهدة عينية ونظرة موضوعية ومساءلة منطقية ليؤكد بها عقله الذي رفض الكثير مما كان يسود عصره . وهذا السلوك العلمي هو الذي جعلني اجمع بين هذين المفكرين المسلمين

ومن هذا الجانب يراه بعض الدارسين واحدا (من رجال العلم الطبيعي . ومع انه استمد كثيرا من معلوماته في الحيوان ...من الروايات العربية ... فانه كان ذا ميل صحيح الى العلوم الطبيعية . وفي كتابه ملاحظات قيمة في التطور واثر البيئة وفي علم النفس عند البشر والغرائز في الحيوان . والجانب التجريبي في كتاب الحيوان بارز جدا . ثم ان الجاحظ استطاع أن يستخرج روح النشادر وملح النشادر بالتقطير الجاف) (٣) .

والمنهج الذي سلكه هذا البحث يقوم على اساسين :

الاول : اثبات ان الطريق الذي اتخذه الرجلان في البحث يعتمد على منهج علمي يتوافر فيه بعض ما يتوافر في مناهج العصر الحديث (٤) ، وفي هذا المجال يؤكد الدكتور محمود قاسم (اما الطريقة العلمية التي يوصي ابن خلدون باتباعها فهي طريقة مبتكرة تعتمد على دراسة القوانين التي يخضع لها المجتمع . وعلى المقارنة بين انواع المجتمعات ومختلف الشعوب ..... وهنا نرى انه يريد منهجا علميا بمعنى الكلمة لانه يهدف به الى الكشف عن القوانين التي يمكن استخدامها في تفسير الماضي والتنبؤ بالمستقبل . وليس هذا المنهج

(٢) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣٤٦ .وانظر علي عبدالواحد وافي : عبقريات ابن خلدون ص ٢٠٦ .

(٣) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ص ٢٩٥ .

(٤) انظر علي عبد الواحد وافي : عبقريات ابن خلدون : ٢٠٤ .

المبتكر الذي يحدثنا عنه الا طريقة المقارنة بين مختلف الظواهر الاجتماعية ، وهي الطريقة التي يعترف علماء الاجتماع في الوقت الحاضر انها من افضل طرق البحث) (٥). كما يؤكدفكتور شلحت (ان النزعة العلمية العقلية المنطقية التي تنزع اليها المعتزلة تتجلى عند الجاحظ في تسجيل الواقع تسجيلا شاملا بواسطة الملاحظة والمعاينة والسماع والتجربة)(٦).

والاساس الثاني : هو التأكيد على ان الباحثين يسلكان هذا المنهج ويلتقيان عنده في موضوعات واحدة احيانا او تكاد . وانهما قد توصلا بفضل ذلك المنهج الى نتائج واحدة احيانا او احكام متقاربة الى حد بعيد احيانا اخرى .

والمسائل التي اجتمع عندها الباحثان على هذا المنهج هي: العقل والشك والملاحظة والمشاهدة ، وما ينجم عن هذه المسألة الاخيرة من دراسة في اثر البيئة الطبيعية ، ووقوف امام النفس الانسانية .

فهل هناك ضرورة تستدعي البحث في الجاحظ وابن خلدون ، في حين ان كثرة من الدراسات قد تناولت كلا منهما بالبحوث العديدة ؟ — ولكي يكون ضرورياً ما نبحث فيه نقول : ان الكثيرين قد بحثوا الجاحظ من أمثال شفيق جبري وطه الحاجري وداود سلوم وحنا الفاخوري وجورج غريب واحمد امين وعبد المنعم خفاجي وفكتور شلحت وصموئيل عبد الشهيد وبلات ووديعة النجم (٧) .

كما ان كثيرين قد درسوا ابن خلدون من امثال عمر فروخ وعلي عبد الواحد وافي ولاكوست وطه حسين وساطع الحصري ومحمد عبد الله عنان وغيرهم (٨) . ولكن تلك الدراسات وهذه الابحاث قد تناولت كل واحد من الرجلين على حدة . كما انها تناولتهما في مسائل محددة . واهم من هذا ان تلك الدراسات والابحاث لم تتطرق الى مسألة المنهج وعلميته . وانها لم تلتفت الى ما التفت اليه هذا البحث وهو اجتماع الباحثين حول هذا المنهج العلمي . وقد كان هذا الحافز الذي يؤدي الى ما اطلقت عليه (الضرورة) في قيام هذا البحث .

وها نحن اولا نتناول هذه المسائل واحدة فواحدة :

---

(٥) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ٣٤٣ .
(٦) فكتور شلحت : النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ : ١٥٥ .
(٧) انظر : قائمة المراجع في نهاية هذا البحث .
(٨) انظر : قائمة المراجع في نهاية البحث

١ ـ العقل :

من افضل الوسائل التي اعتمدها الجاحظ في بحثه العقل ، فما انسجم مع العقل اخذ وما تعارض معه عزف عنه . ويجب الا نستغرب من استخدام الجاحظ العقل . فهو (اعظم رجل اخرجته مدرسة النظام ، وهو فيلسوف طبيعي سار على غرار النظام في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الايمان واليقين) (٩) والجاحظ لم يقف عند حدود ما يقال او يشاع ، بل كان يعرض كل شيء على العقل ويركن الى سلطانه (وقد ورد في كتاب الحيوان في مواضع كثيرة ما يدل على انه كان يرد الرأي الى العقل ، ولا يأخذ بأي شيء حتى يحكم عقله ويجعله المرجع الأخير . فان أجاز العقل ذلك الرأي او الشيء اجازه واخذ به وان لم يجزه اهمله ورماه) (١٠) وذلك يدل على قوه عقل الجاحظ وعمق نفاذه وسيطرته على تفكيره . وقد يبدو للنظرة الاولى ان هذا الامر يتعارض مع اعتماد الرجل على الحواس . ولكن واقع الامر ليس كذلك لان ما تؤكده الحواس كما يرى الجاحظ انما هو حكم ظاهر بينما يؤكد العقل حكم الباطن فاذا اخطأ الاول في رأيه ، فان الثاني يصيب (لعمري ان العيون لتخطىء فلا تذهب الى ما تريك العين واذهب الى ما يريك العقل ، والأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة).

ومن هنا لم يستسغ الجاحظ كثيراً من أوهام عصره وخرافات زمانه وقلما رفضها لمجرد الرفض بل كان يعرضها على العقل ، يجادل فيها ويناقش ، فاذا ثبت بعدها عن العقل يرفضها بعد ذلك . وكثيراً ما هزأ بها وتهكم على رواتها ومصدقيها . من ذلك هزؤه بروايات العرب عن السعالى وأولاد السعالى من البشر وبما روي من الشعر في رؤية الجن وأحاديثهم) (١١) .

ولا شك ان الاعتماد على العقل في منهج البحث له ما يبرره في كل عصر . ولعل هذا العصر أشد الحاحاً في اعتماده على العقل . أما على عهد الجاحظ فهو دلالة ايجابية تدل على عقلية الباحث الفذ في وقت لم تكتمل فيه وسائل البحث العلمي على الشكل الذي نراه اليوم . وقد كان الجاحظ واحداً من أشهر رجال المعتزلة الذين اعتمدوا على العقل في جدالهم واثبات قضاياهم ، فقد كان كل من الجدل والمنطق والعقل رائد المعتزلة كما يعرف . (وايمان الجاحظ بالعقل الى هذا الحد جعله يشكك في كل أمر حتى يبلغ

(٩) قدري طوقان : مقام العقل عند العرب : ٩٤
(١٠) المصدر السابق : ٩٨ . وانظر داود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ : ١٤٨ .
(١١) محمد عبد المنعم خفاجي: الجاحظ : ١٦٩ ـ ١٧٠

فيه اليقين فالأفكار المسبقة في النظر الى الأمور حاول ان يتجنبها قبل (باكون) ومن هنا كان نقاشه في شؤون كثيرة سمعها ولم يرض عنها عقله ، ومن هنا محاجته ارسطو في قضايا رأى فيها غير رأيه) (١٢) . فقد سخر مما قاله ارسطو عن الفيل (وقد سمعنا ما قاله صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله ان يخلد على نفسه في الكتب شهادات لايحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها اشباهه من العلماء) (١٣) وطالما استخدم اساوب التهكم في خبر سمعه فاستنكر وقوعه أو أمر استعصى عليه قبوله بواسطة العقل . من ذلك تهكمه بارسطو أيضاً حين ادعى ان الكلاب السلوقية كلما دخلت في السن كانت أقوى على المعاظلة فيقول (وهذا غريب جداً وقد علمنا ان الغلام احر مايكون وأشبق وانكح واحرص عند اول بلوغه ثم لايزال كذلك حتى يقطعه الكبر) (١٤) . وقد عاب إرسطو (اموراً كثيرة منها أنه لم يبن في تحقيقه على الاصول التي بنى عليها الجاحظ نفسه أي لم يثبت اموره بالعيان أو بمعرفة السماع ومما اهتدى اليه الجاحظ بعقله الحاد ان النمل تأخذ من الحب الذي تدخره للشتاء جزء الانبات والتناسل لئلا يفسد ويتعفن) (١٥)

ولا شك ان العلم الحديث يؤكد هذه النظرة حتى يومنا هذا . وهذا هو الذي دفع بروكلمان الى الاعتقاد بأن الجاحظ (قد اهتدى اليها بتجربته الخاصة ، فهذا ونحوه يدل على ان الجاحظ لم يحمله الاستغراق في قراءة الكتب على التنازل بالكلية عن حاسته وملكته الفطرية في دراسة الطبيعة والاحياء) (١٧) .

واذا كان كتاب الحيوان يعج بمئات من هذه الأمثلة التي تدل على اعتماد الجاحظ على العقل في تصديق الخبر واجراء التجارب وعرض الأمور على بساط المشاهدة والملاحظة ، فان هذه الوسيلة ــ أي العقل ــ لايقف استخدام الجاحظ لها عند حدود طبائع الحيوان وسلوكه فحسب ، فان العقل كان أقوى وسيلة امتلكها الجاحظ في تأكيد أي رأي واثبات اية قضية عرضت له دونما تحديد أو تخصيص. من ذلك مثلا تحكيمه العقل كأساس (من أسس التشريع . وعلى هذا فالعقل عند الجاحظ هو المرجع وهو الحكم في التفسير والأخذ بالأحاديث النبوية) (١٨) . ومن هنا يقف الجاحظ ليحكم عقله في تفسير المفسرين لبعض الآيات

---

(١٢) جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره : ٧٨

(١٣) الجاحظ : الحيوان ١ /٢١ .

(١٤) المصدر السابق : ٣ / ٣٣ . وانظر صموئيل عبد الشهيد : ٤٤

(١٥) محمد عبد المنعم خفاجي : الجاحظ : ١٧٩ .

(١٧) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٣ / ١٠٧ .

(١٨) قدري طوقان : مقام العقل عند العرب : ١٠١ .

وفي قبول أو رفض بعض الأحاديث التي لايراها تتفق مع العقل : من ذلك (تهكمه من مجرد ذكره لتفسيرهم من هذا النوع قوله .... وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى منخريه بزوج سنانير ... فكفيناهم مؤونة الجرذان ... وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص ... الخ) (١٩).

وفي مجال الاعتماد على العقل فان ابن خلدون لايختلف عن الجاحظ سواء كان ذلك الاعتماد مباشراً ام كان عن طريق الملاحظة والمشاهدة الحسية . واعتماده على العقل جعله يشك في ما يصل اليه من أخبار فكان يسلط عليها كل وسيلة تعتمد على العقل فهو وحده الذي يستطيع تمييز الممكن عن الممتنع ، وهذا دون شك تفكير علمي صائب لايزال عصرنا الحديث يعتمده وسيلة من الوسائل التي لاتتناقض مع مايصل اليه من نتائج العلم .

ومن هنا وقف ابن خلدون يكذب الخرافات الشائعة على عصره وخصوصاً مالا يقع منها تحت حس أو تجربة علمية أو مبدأ فلكي . ووسيلته في ذلك حس عقلي نافذ يقيس به الأشياء . وفي ذلك يقول في معرض رده على بعض ما تناقلته العامة من امور وأساطير وخرافات (وقد حملت على الاعتقاد ان ليس شيئاً من صحيح لأن كل هذه الاشارات ليست مبنية على مبدأ علمي أو فلكي أو أي مبدأ آخر) (٢٠) .

وقد انتبه الدكتور طه حسين الى اهمية هذا المبدأ في معرض حديثه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية وهو يشير الى منهجه في دراسة التاريخ فرأى ان كل ماسلكه من (قواعد الفحص والتحقيق ترجع الى اصل واحد وهو وجوب البحث بطريقة نظرية عما اذا كانت واقعة من الوقائع ممكنة في ذاتها وعما اذ لم تك مناقضة لطبائع العمران وما اذا كانت تتفق مع الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما) (٢١) .

فطه حسين يؤكد على هذا الاساس مبدأ العقل الذي اتخذه ابن خلدون في فحص الحقائق بل انه على هذا الاساس يخضع كل الوسائل الممكنة الاخرى لعملية يجري عليها العقل ويخضعها له . وقوله (ممكنة في ذاتها وليست متناقضة لطبائع العمران) هي في الواقع عملية عقلية ليس الا وقد كانت من قديم الزمان وسيلة لايستغنى عنها في بحث الحقائق

(١٩) انظر الجاحظ : الحيوان — / ٦٧ . وشفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب ص ١٨٤ — ١٨٥ ، وحنا الفاخوري : الجاحظ : ٥٨ .

(٢٠) لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ٢١٠ . وانظر المقدمة ص ٢٣١ .

(٢١) طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٣٢ .

الكونية والبشرية . ولا تزال هذه الوسيلة تفعل فعلها في عملية البحث العلمي وخاصة في علم الاجتماع . وابن خلدون في مجال استخدام العقل ينطلق من نفس منطلق سلفه وهو الايمان بما يتفق مع العقل والرفض لما ترسمه اوهام الناس وخرافاتهم واساطير اجدادهم . ومن هنا يرفض مايردده الناس على عهده الخرافة التي تقول ان سواد ولد حام كان بسبب دعوة أبيه عليه « وقد توهم بعض النسابين ممن لاعلم لديه بطبائع الكائنات ان السواد هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من ابيه ظهر اثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه . وينقلون ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد » (٢٢) .

ولم يقف ابن خلدون عند رفض هذه الخرافة بل هداه عقله الى ان يناقشها في ضوء المشاهدة والملاحظة التي تتخذ من العقل سبيلا الى الانطلاق فيقول « وفي القول بنسبة السواد غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين كل سنة قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر) (٢٣) .

وفي هذا السلوك منهج علمي سليم لايعتمد العرض أو الرفض فحسب وانما يتبع ذلك بمناقشة قوامها الملاحظة والمشاهدة وأساسها العقل . ومن هنا وقف الدارسون المحدثون يشيدون بمنهج الرجل الذي لايكتفي بعرض الحقائق عرضاً سطحياً وانما يميزونه على غيره بسبب استخدامه قانون السببية كما يسميه (ايف لاكوست) في بحثه عن ابن خلدون فيرى الباحث (ان المواد التي استخدمها ابن خلدون متأتية من تبحره وخاصة من ملاحظاته ومن اختباره الملموس كرجل سياسة وما يميزه أساساً بالنسبة لمؤرخين آخرين هو اهتمامه البالغ بقانون السببية . فهو يتجاوز تحليل الاسباب المباشرة لكي يتقدم في البحث عن الأسباب العميقة في الاصعدة التي لاتصدر عن الفكر التاريخي التقليدي . فاذا كان التاريخ بشكله الخارجي ينص على (تسجيل الاحداث) فان خصائصه الداخلية هي تحليل وتصويب الوقائع والتقصي اليقظ للأسباب التي أوجدتها والمعرفة العميقة للطريقة التي جرت فيها الاحداث وتولدت منها . ان العمل لأجل الافهام هو المحرك الاساسي لدى ابن خلدون والهدف الذي يحدد منهجه) (٢٤) .

---

(٢٢) و (٢٣) المقدمة : ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢٤) لاكوست : العلامة ابن خلدون . ٢٢٢ .

وهذا حكم رجل لايمت إلى ابن خلدون بصلة ، ولكن الروح الموضوعية هي التي املت عليه حكمه .

ان ابن خلدون يتميز على غيره في رأي الدارس كونه لايقنع بما يقال بل هو يحكم العقل الذي يأخذ قانون السببية .

ويضيف علي عبدالواحد وافي إلى تحكيم العقل سبباً آخر هو التعليل بحقائق الطبيعة أو علم النفس . فابن خلدون يعتمد (الاستدلال المنطقي الخالص ان كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق الدليل العقلي وإلى التعليل بحقائق العلوم الطبيعية أو علم النفس ان كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق هذه الحقائق) (٢٥) ؛ وهذا يدل على أن ابن خلدون لم يقف أمام الاحداث وقفة رجل عادي بل هو يفكر ويشغل عقله ويعمل فكره ، ويكون حصيلة ذلك عنده ان احداث التاريخ لا يمكن ان تدور بدون سبب ، هي لاتدور في الهواء كما يتراءى للرجل الساذج ، اذ لابد ان تتحكم فيها قوانين من الحياة والكون تفعل فعلها في المجتمع ، ومن خلال مايدور فيه أو يتحرك ضمن نطاقه . وذلك هو ما اطلق عليه ابن خلدون قانون (العمران البشري) فسقوط دولة ونشوء أخرى وموت جيل وحياة آخر واندحار جيش وانتصار آخر ، كل ذلك لايتم دونما سبب أوداع . ولولا العقلية الفذة واستخدامها العميق لما توصل ابن خلدون إلى ابتداع ما انتهي الى تسميته (بعلم الاجتماع) الذي يزعم اكتشافه الغربيون في عصرنا الحاضر .

٢ ــ الشك :

ونتيجة حتمية لاستخدام العقل كان اللجوء إلى الشك فيما يعرض للباحث من اخبار ، وقد اتخذ عصرنا الحديث الشك في مناهج البحث وسيلة للوصول إلى الحقائق ، وصار اسم ديكارت يقترن بهذا المنهج الذي سمي بمنهج الشك ، وتبعه في ذلك باحثون من الشرق من امثال طه حسين وغيره بحيث صار لازمة من لوازم البحث العلمي الدقيق .

والحق أن الجاحظ يقترب من ديكارت احيانا في موقفه من الشك فهو الذي يقول : (اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له). ومعنى هذا كله : اعرف الشك لتعرف به اليقين .

---

(٢٥) علي عبد الواحد وافي . عبقريات ابن خلدون : ٢٠٤ .

فالشك في نظره سبيل إلى اليقين فهو لايشك في الامور من أجل الشك وحده وانما يشك فيها حتى يصل الى يقين قاهر .

وكذلك ديكارت فانه لايشك في الامور من أجل الشك وحده وانما يشك فيها على امل ان يصل إلى حقائق يثبتها البرهان) (٢٦) :

وقد نسي الذين يتخذون من الشك وسيلة لتقويم النص أو للوصول إلى الحقائق العلمية الثابتة ان العرب والمسلمين قبل عدة قرون مارسوا هذا المبدأ واستخدموه من أجل الحقيقة ولاجل دعمها :

ولا أقول ذلك من أجل ابن خلدون او الجاحظ فقد كان جامع الحديث يسلك سلوكاً علمياً بحتا حين لايتثبت من الحديث قبل أن يتثبت من حامله وراويته . وفي مسائله العلمية كان الجاحظ (يتثبت من صدق حامل الخبر قبل الخبر فيقول مثلا : « حدثني بعض أهل العلم فيمن طال ثواؤه في أرض الجزيرة وكان صاحب اخبار وتجربة وكان كلفاً بحب التبين معترضاً للامور يحب ان يفضي الى حقائقها وتثبيت اعيانها بعللها وتميز اجناسها (فكان يعرف للعلم قدره وللبيان فضله .... الخ) (٢٧) او يقول : (وخبرني هذا الرجل وغيره من أهل النظر واصحاب الفكر انهم رأوا ... الخ) (٢٨) .

ولست بحاجة لان أجزىء هذا النص من أجل توضيح مايدل فيه على التثبيت الذي يمكن صاحبه في الوصول إلى الحقيقة الناصعة ، والواقع ان كتاب الحيوان يمتليء (بمثل هذه الاشارات التي يرى فيها الجاحظ اسا ينطلق منه في قبول مايبلغه من روايات أو طرائف أو غرائب شريطة ان تكون موافقة للعقل والمنطق وحين ينكر خبراً أو يرفض رواية يستخدم لفظة زعم ويزعمون وقيل . وفي هذه الالفاظ مافيها من الريبة والشك ... ولايكتفي بذلك بل يعمل على مناقشته وتفنيده ويخرج منه باستدلالات يدحض بها كثرة من الخرافات والاساطير) (٢٩) ومن ذلك قوله (زعموا ان النمر الانثى تضع في مشيمة واحدة جروا وفي عنقه افعى تطوقت به . واذا لم يأتنا في تحقيق هذه الاخبار شعر رائع أو خبر مستفيض لم نلتفت لفته) (٣٠) .

---

(٢٦) شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب : ١٥٤ .

(٢٧) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ ص ٣٠ .

(٢٨) المصدر نفسه : ص ٤٠ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٤٠ — ٤١ .

(٣٠) الجاحظ : الحيوان ٧ / ١٦٨ .

فالجاحظ هنا يرفض هذا الزعم لسببين : الاول ان الخبر لايؤيده عقل او يؤكده علم والثاني : لاتؤيده أخبار أو أشعار أو أقوال السابقين وواضح من أول كلامه استخدام كلمة (زعموا) . وهذا التفكير العلمي عند الجاحظ لايعتمد رفض الروايات والاخبار من أجل الرفض بل هو يحيل القضايا على العقل والمنطق والواقع ، لانه يرى ان تلك الاخبار ربما خالطتها الأكاذيب وبالغت فيها الاقاويل ، فالعقل هنا هو الفيصل الاخير (لذلك يشدد النكير على الكذابين من رواة الغرائب والاعاجيب وكان ارسطو الهدف الأكبر لمرمى سهام الجاحظ . وزيادة في الموضوعية فان الجاحظ لايبت في حكم بتاً نهائياً ففي حالات كثيرة نراه يستخدم اصطلاحات علمية نقتدي بها نحن اليوم في ابحاثنا .

من مثل (وارى جواز الامر او (ولست ابت بانكار الشيء) في مثل حديثه عن ولد الكركدن وهو قوله حين يشك في الخبر (ولكن العجب كل العجب ماذكروا من اخراج ولد الكركدن راسه واعتلافه ثم ادخاله راسه بعد الشبع والبطنة ولا اقر الولد يخرج راسه من فرج امه حتى يأكل شبعه وارى جوازه موهوماً . الا ان قلبي ليس يقبله ... ولست ابت بانكاره وان كان قلبي شديد الميل إلى رده) . (٣٢)

ولست ابالغ اذا قلت ان هذه العبارات وغيرها كثير ، دليل على روعة الروح العلمية التي كان الجاحظ يتمثلها اروع تمثل ، ولتأكيد مدى ما كان من اهتمام الجاحظ بالشك من أجل الحق والمعرفة اورد قولته المشهورة فيه كأنه فيها يوجه كلامه الى كل باحث عن الحق حيث يقول (اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً . فلو لم يكن في ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه . ثم اعلم ان الشك في طبقات عند جميعهم . ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف) (٣٣)

وجدير بكل باحث عن الحق ان يتمسك بقولة الجاحظ هذه . اذن لاطمأن الناس إلى أن المعرفة لاخوف عليها من عبث العابثين . وفي مبدأ اتخاذ الشك وسيلة من وسائل التحقيق العلمي يلتقي الجاحظ مع ابن خلدون . ولعل من جملة ماهدف اليه بواسطة الشك هو

---

(٣١) جورج غريب : الجاحظ : ٦٢ — ٦٣ .

(٣٢) الجاحظ : الحيوان ٧ / ١٢٥ وانظر فكتور شلحت : النزعة الكلامية : ص ١٥٦.

(٣٣) الجاحظ : الحيوان ٦ / ٣٥ وانظر محمد عبد المنعم خفاجي : أبو عثمان الجاحظ ص ١٧١ — ١٧٢ .

تخليص البحوث التاريخية من الكذب والخرافات والاساطير مما لاتخضع لعقل او تقع تحت الحقيقة (وكانت هذه الخرافات لاتزال سائدة في العامة .... ومع ذلك فقد كان دأب علامتنا ابن خلدون أن يكافح الخرافات) (٣٤) .

ولقد اشار ابن خلدون إلى ذلك اشارات كثيرة في مستهل الكتاب الاول في مقدمته اذ يقول : (ومن الاسباب المقتضية له – اي تأليف الكتاب – وهي سابقة على جميع ماتقدم، الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله . فاذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تميز الصدق من الكذب وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم) (٣٥) .

وواضح من قوله (تميز الصدق من الكذب) والذي يجعله (ابلغ في التمحيص) انه يؤكد مبدأ الشك الذي يصل بصاحبه إلى الخبر اليقين أي (الحق) ودليل ذلك أنه أورد بعد هذا الكلام رواية نقلها (المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من اجسام معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتم بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة) (٣٦) فهذا الخبر وأمثاله كثير، لايمكن أن يلقى قبولاً من ابن خلدون كما لم تلق تلك الخرافات التي ردها الجاحظ بالحجة والمنطق والعقل .

وهذا وذاك عند ابن خلدون والجاحظ انما يدلان على فهم عميق لطبيعة العمل الذي هدف اليه كل من المفكرين وخاصة في اتخاذ مبدأ الشك واحداً من المبادىء التي تشكل حجر اساس ثابت ومكين في منهج البحث العلمي .

وفي مقدمة ابن خلدون تأكيد واضح على هذا المبدأ، ورد أوضح لكل ما لايقع تحت نظر او تجري عليه مشاهدة اولا يصدقه عقل ولذلك نجده يؤكد على ما يسميه في أغلب

---

(٣٤) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ٥١ .
(٣٥) ابن خلدون : المقدمة . ص ٣٥ – ٣٦ .
(٣٦) المصدر السابق ص ٣٦ .

الاخبار (امكان وقوع الشيء) أو (تمييز الحق من الباطل) أو (الامكان والاستحالة) وهذه عبارات تؤدي كلها إلى شيء واحد وهو الشك في الخبر أو الحدث أو في كل ما لا يمكن قبوله أو وقوعه وحدوثه واما الاخبار عن الواقعات فلا بد من صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه ....فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز مايلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لايعتد به وما لايمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق والكذب بوجه برهاني لامدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا مانحكم بقبوله ومانحكم بتزييفه) (٣٧) .ولست أجدني محتاجاً للتعليق على قيمة الشك ومبلغه في رأي ابن خلدون وقد عمدت إلى تسجيل هذا النص لاستقصاء رأيه في أهمية التثبت من قبول الخبر أو عدمه . وابن خلدون في هذا ليس أقل من الجاحظ اعتداداً بالشك واهتماماً باستخدامه على رغم اختلاف كل منهما عن الآخر فيما استخدم هذا المبدأ من أجله إلا أن الذي اتفق عليه الرجلان أن مبدأ الشك ضروري ضرورة شديدة في منهج البحث .

٣ ـ الملاحظة والمشاهدة :

ونقصد بالملاحظة هنا . الملاحظة العلمية التي تقوم على منهج و (يقوم بها الباحث بصبر وأناة للكشف عن تفاصيل الظواهر وعن العلاقات الخفية التي توحد بين عناصرها او بينهما وبين بعض الظواهر الاخرى) (٣٨) وهذه الملاحظة هي (المشاهدة الدقيقة لظاهرة ما مع الاستعانة باساليب البحث التي تتلائم مع طبيعة هذه الظاهرة) . (٣٩)

واذا كان الشك قد صار لازمة من لوازم البحث العلمي فان الملاحظة والمشاهدة تعتبر واحدة من الاسس التي يقوم عليها اى بحث يتسم بالعلمية ومهما تعددت الوسائل والسبل التي توضع امام الباحث العلمي فانه لايستغني عن هذه الملاحظة لكي يصل إلى نتائج بحثة

(٣٧) المصدر نفسه : ص ٣٧–٣٨ .

(٣٨) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ص ٩٦ .

(٣٩) المصدر نفسه : ص ٩٢ .

بعد طول موازنة وأعمال فكر وولع في الوقت امام أية ظاهرة من الظواهر . ولعل اروع اروع ما يسجل للجاحظ وابن خلدون في هذا المجال ما اثر عنهما من آراء وتعليلات كانت نتيجة من نتائج الوقفة الطويلة والنظرة العميقة والاستكشاف الدقيق يرافق ذلك حسن التعليل لظواهر الطبيعة او الحياة او الانسان .

فهذا هو الجاحظ يدحض بطول المشاهدة وعمق الملاحظة ودقة التعليل مارددته خرافات القدماء وأساطير الأولين وتناقلته كتب التأريخ بشأن (السواد والسود فيرده إلى البيئة الطبيعية الطبيعية أو إلى الأرض التي يعيشون فيها يقول على لسانهم : والسواد والبياض انما هو من قبيل الخلقة والبلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن مثل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها وليس ذلك من قبل نسخ ولاعقوبة ولا تشويه ولا تفضيل) (٤٠) .

والعجيب ان ابن خلدون يعالج المسألة نفسها في معرض رده ايضا على الخرافات والأوهام وهو يكشف عن ذلك أوهام المؤرخين وجهلهم ، ثم يعلل ذلك تعليلا علمياً دقيقا فيرده ايضا إلى تأثير الحرارة فيما يصل بالقاريء إلى قناعة تامة لاتترك أي شك في نفسه :

(وقد توهم بعض النسابين ممن لاعلم لديه بطبائع الكائنات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة عليه من ابيه ظهر اثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد) (٤١) .

وشأن ابن خلدون في هذه المسألة شأنه في غيرها من المسائل لايكتفي برفض ما يأباه عقله او مايمتنع على طبيعة منهجه العلمي وانما هو يعلل ليصل بتعليله إلى قناعة وليقنع الآخرين بالحجة والدليل وهو يستخدم في ذلك ملاحظاته ومشاهداته وطول نظره فيقول : (وفي القول بنسبة السواد غفلة عن طبيعة الحر والبرد . واثرهما في الهواء فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة ، قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر) (٤٢)

وهو تعليل ينم عن عقلية فذه تدل على طول تفرغ للمسألة التي ينظر اليها ابن خلدون بل مجالدة وتحكيم عقل ودقة ملاحظة .

---

(٤٠) وديعة طه النجم : الجاحظ والحاضرة العباسية ، المقدمة ، ص ٩ .

(٤١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٣ .

(٤٢) المصدر السابق : ص ٨٤ .

هذه مسألة لايختلف فيها اذن ، الجاحظ وابن خلدون وهي ان كانت حقيقة او شبه حقيقة جغرافية فانها نتيجة من نتائج استخدام المشاهدة الدقيقة والملاحظة الطويلة. واذا سلمنا بروعة النتائج التي توصل اليها كل من الباحثين في هذه المسألة فلربما يزيد اعجابنا بهما اكثر اذا عرفنا ان عامل الملاحظة عندهما لم يقف عند هذا الحد فقد تعداها إلى دراسة الشعوب وتطور المجتمعات بل إلى اكثر من ذلك حين يعزى إلى البيئة العنصرية والولادية نوع التطور الذي يجري على الافراد والجماعات وبالتالي ينعكس ذلك على اون الحضارة ومقدار تقدمها ومدى تطورها ويمتد اثره على المشاعر والعواطف ونوع التفكير .

فهذا هو ابن خلدون يلاحظ (في دراسة الدول وقيامها وسقوطها ان اسباب هذه التطورات لاترجع فقط إلى البواعث والاطماع وإلى الاغراض والغايات وإلى قوة الارادة لدى الافراد ولاحظ ان تأثير هذه العوامل لايخضع فقط لخواص الجماعات التي تنتمي اليها ولكنها تخضع ايضا للظروف الاجتماعية العامة وقد حمله ذلك على أن يبحث العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكفيها وانتهى إلى انها ترجع إلى خواص قومية وجنسية ولكنه لاحظ أيضاً ان هذه الخواص نفسها ترجع إلى مؤثرات الوسط الطبيعية كالاقليم والماء والأرض والموقع والغذاء . واذن فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي أن ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ولكي نفهم هذه يجب أن نحسب حساباً للعوامل الطبيعية) (٤٣) .

فابن خلدون حين يربط بين النظم السياسية وطبيعة البشر وحين يخضع ذلك كله إلى ظروف العلاقات الاجتماعية وبواعثها وحين يربط بين هذا كله وبين الجنس وما يخضع له من مشاعر وعواطف لايجد سبيلا إلى اشباع نهمه في القناعة ولذلك فانه يعتقد ان لعوامل البيئة الطبيعية أثراً لايمكن اغفاله للحكم على كل مظاهر التطور والهبوط والانكماش للجماعات والدول . وهو تعليل لايمكن تحقيقه (بجرة قلم) كما يقول المثل وانما يحتاج إلى طول المشاهدة والملاحظة واحكام العقل وتتبع لكل الظواهر الاجتماعية وما يتبعها من حركة وسكون وإلى ربط ذلك كله بالبيئة الطبيعية المتفاعلة مع الانسان . ومن هنا يرى بعض الدارسين ان ابن خلدون ليس (فيلسوفاً اجتماعياً فحسب ، بل هو عالم اجتماعي وواضع علم الاجتماع على اسسه الحديثة ، لم يسبقه إلى ذلك أحد . ثم ان علماء الاجتماع الذين جاءوا بعده من الغربيين أنفسهم كانوا دائما مقصرين عنه في بعض النظريات الاجتماعية أو غافلين تمام الغفلة عن

---

(٤٣) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون ، ص ١٥٨ . وارجع ذلك الى فصول الباب الثاني من المقدمة .

عدد من قوانين العمران التي استخرجها هو في القرن الثامن الهجري) (٤٤) .

واذا كان هدف ابن خلدون في هذه المحاولة تقرير حالة يهدف من ورائها إلى دراسة أحوال المجتمع دعاه اليها تخليص البحوث التاريخية – كما ادعى – مما أصابها على أيدي المؤرخين فان العجب ليأخذ الدارس حين يجد الجاحظ يقترب من هذه الدراسة ويعطي أحكاماً مقاربة من قبل ابن خلدون وهو كما نعرف رجل أدب لاباحث تاريخ أو عالم اجتماع .

فالجاحظ يشبه (المجتمعات بالكائنات الحية التي تنمو باطراد فتنوع البيئات والأوضاع يفرض عليها التنوع في التركيب والانفعال وهو بذلك يمهد السبيل أمام النظريات الحديثة التي تقول ان البيئة العنصرية والولادية تفرض على الافراد عقليات وعادات وثقافات خاصة تبدو وكأنها انعكاسات البيئة على الضمائر الفردية . ولطالما أعلن الجاحظ ان فوارق المدينة والامكانات عند مختلف الشعوب انما تخضع لمواهب غريزية عند كل جنس كما تخضع إلى تركيبه وإلى الجو الذي يعيش فيه) (٤٥) .

فالذي يقرره الجاحظ هنا لايختلف في شيء عما يقرره ابن خلدون وهو تأثير العوامل البيئية على طبائع البشر وأثرها في أمزجتهم وتصرفاتهم ومستوى معيشتهم بل ان تأثير ذلك ليمتد إلى لون البشرة وغيره .

وبالتالي فان هذا التفاعل ينسحب أثره على العادات والعقليات والثقافات ولايختلف اثنان – على ماأظن – في أن الباحثين الكبيرين قد قررا حقيقة واحدة ودرسا ظاهرة واحدة، بل وتوصلا إلى نتيجة ان لم تكن واحدة فهي متقاربة إلى أبعد الحدود . ولست أعتقد ان ابن خلدون كان يعول على الجاحظ في اقرار هذه النظرية التي أقرها علم الاجتماع حديثاً لسبب بسيط هو ان ماتوصل اليه ابن خلدون في هذا المجال ليس الا جزء ضئيلا مما درسه وقرره حتى لقد اقترنت به كل الدراسات الاجتماعية التي صارت علماً يحسب له حساب في عصرنا الحديث .

والمدهش حقاً ان كثيراً مما رصدته (المشاهدة والملاحظة) عند الجاحظ وابن خلدون قد أدى إلى نتائج بعيدة . فهذا الجاحظ تصل به ملاحظاته ومشاهداته إلى نتائج علمية في الطبيعة والكيمياء والفيزياء . من ذلك مايقرره بشأن الضوء والصوت اذ يقول : (ومتى رأيت البرق سمعت الرعد بعده والرعد يكون في الأصل قبله ولكن الصوت لايصل اليك في سرعة

---

(٤٤) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ٦٩٥ .

(٤٥) جميل جبر : الجاحظ في حياته وفكره ، ص١٤٧ و ١٤٨ .

البرق لأن البارق والبصر أشد تقارباً من الصوت والسمع) (٤٦) .

أرأيت طرافة تعليل الجاحظ التي لاتختلف الا في العمق عما تطرحه نظريات العصر الحديث بهذا الشأن . ومن هنا يمكن أن نقرر ان ظاهرة المشاهدة عند الجاحظ تمثل واقعية حسية لاتدع مجالا لتقول قائل على الاطلاق بدليل ان الرجل كان يشاهد مسائله مشاهدة شخصية ولايتركها الا وهو يقرر فيها مايقرر .

من ذلك ما قرره بشأن مايطرأ على طبيعة المخصي بعد خصيه اذ يقول : (قد رأيت أنا بعضهم خصى أربعة هو أحدهم ، ورأيت الخصاء قد جذبه إلى حب الحمام وعمل التكك والهراش بالديوك وهذا شيء لم يجر منه على عرف وانما قاده اليه قطع ذلك العضو)(٤٧).

ويسمع الجاحظ ان القطران والكبريت الاصفر اذا صبا في أفواه بيوت النمل قتلاه فلا يكفيه ما يسمع فيجري التجربة بنفسه ليتأكد مما يشاع بهذا الشأن (وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلا) (٤٨) .

والجاحظ لايهدف في تجاربه إلى اثبات ظاهرة بعينها فحسب ، فهو في ذلك شأن العالم الذي يريد اقرار ظاهرة ليعممها وليخرج فيها بنظرية معينة أو مبدأ معين فهو يصور لنا مثلا (كيف قطع أعضاء بهيمة وراح يشرحها دارساً خصائصها ووظائفها . أو كيف ألقى عليها عنصراً كيمياوياً ليرى انفعالاتها ، أو غير ذلك من شؤون التجربة العلمية التي كان يستند غالباً الى نتائجها المشابهة ليقرر مبدأً معيناً) (٤٩) .

ومن هنا يقرر أحمد أمين ان الجاحظ سبق إلى اتجاهات قيمة فيما تسمى الان سيكولوجية الحيوان ، فهو يراقب نداء الديك بالليل ويبحث هل اذا كان في قرية واحدة يصيح أولا ؟ ليعلم هل تصيح الديكة بالتجارب أو بطبعها ؟) (٥٠) .

ويمتلك الجاحظ روح العالم الفذ الذي لاتغريه قدرته فيتجاهل قدرات الاخرين وكذلك كان لا يتردد في سؤال ذوي الخبرة وأهل المعرفة ممن هم أوسع معرفة وأكثر اطلاعاً وأقرب إلى الاختصاص من ذلك سؤاله أحد البحريين عما زعمه أرسطو ان السمك لا يبتلع

---

(٤٦) الجاحظ : الحيوان ، ٤/٤٠٨ .

شيئاً من الطعم الا ببعض الماء . وحين يكون جواب الرجل بالنفي يطمئن الجاحظ إلى الجواب ويقول : (وهذا البحري صاحب كلام وعلل وهو يتكلف معرفة العلل) (٥١) وفي هذا مايدل على خلق العالم الحق .

ولعل الجاحظ لم يتكلف هذه الاساليب الا وصولا إلى الحقيقة وابتغاء لها فهو لايتعجل الامور ولا يطلق الكلام قبل أن يتحقق من نتيجته ويصل إلى صحته ، ومن هنا كانت دقة الملاحظة والاختبار الشخصي تلازمان كل تحقيقاته العلمية ولعل من مظاهر ذلك كثرة استخدامه الفاظ (رأيت ولاحظت) وأمثالها مما يدل على ممارسة الرؤية ممارسة شخصية .

واذا كان لجوء الجاحظ إلى المشاهدة الحسية قد وصل به إلى ماقررنا فان هذه الظاهرة (المشاهدة والملاحظة) قد وصلت نتائجها عند ابن خلدون إلى ابعد من ذلك . نعم لقد اعتمدها الباحث في رصد الظواهر الاجتماعية . وما ينتج عن تفاعلها وحركاتها ، ولقد وقف علي عبدالواحد وافي على عين الصواب حين رأى ان ابن خلدون (في بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين تتمثل أولاهما في ملاحظات حسية تاريخية لظواهر الاجتماع أو بعبارة أخرى تتمثل في جمع المواد الاولية لموضوع بحثه من المشاهدات ومن التاريخ الخ (٢٥).

فالمشاهدة والملاحظة اذن جانباً اساسياً في ما اعتمد عليه ابن خلدون حين اصدر نظرياته الاجتماعية ، فاذا علمنا ان هذا الجانب من اهتمامات ابن خلدون هو أهم جوانب بحوثه التي رفعت من شأنه أدركنا مدى قيمة هذا السلوك في بحوثه . وفي مكان آخر يشدد (علي وافي (بصورة اكثر تأكيدا على قيمة مبدأ (الملاحظة والمشاهدة) فيقول : (وجميع قوانين ابن خلدون وافكاره مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الامم التي شاهدها أو عرف تاريخها) (٥٣) .

ولعل قيمة هذا الجانب في البحوث الاجتماعية وغيرها في العصور المتقدمة تتجلى في ان تلك العصور لاتقدم للباحث العلمي مايستعين به لاقرار نظرياته وفي هذه الحالة لابد للباحث ان يعتمد على جدارته بما يمتلكه من ملاحظات ومشاهدات وقوة ذهن وبعد نظر ليدرك ابعاد مايصل اليه ويصدر بالتالي أحكامه .

---

(٥١) الجاحظ : الحيوان . ٦ / ١٧ . وانظر شفيق جبري : الجاحظ : ١٣٤ . وفكتور شلحت : النزعة الكلامية : ١٣٩ — ١٤٠ .

(٥٢) عبد الرحمن بن خلدون ، ص ١٧٠ .

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

ومن هنا لاحظ كل الذين درسوا ابن خلدون توافر هذا المنهج عنده . فهو في نظر باحث آخر (يرى ان الاقيسة المنطقية لاتتفق مع طبيعة الاشياء المحسوسة ، ذلك لان معرفة هذه لاتتسنى الا بالمشاهدة) (٥٤).

أما لاكوست فانه يعلق أهمية اكبر على مبدأ الملاحظة عند ابن خلدون بل هو يرى ان منهجه في الاساس يعتمد على التجربة . من هنا اكتسبت المقدمة صفة الحداثة العلمية لانه لايصدر عن نظريات فلسفية انما هو يخضع لمراقبة دقيقة خارقة للواقع .

(ان منهج ابن خلدون التاريخي الخالص هو في الواقع تجريبي بشكل أساسي وهو لايستند الا على ملاحظة (طبيعة الاشياء) ولا يصدر مباشرة عن نظريات فلسفية مختلفة . وهذا بالضبط يشكل الحداثة الخارقة لمؤلف ابن خلدون فهو بتخليه عن مساعي المذهب المدرسي قد اسس تفكيره على ملاحظاته الخاصة وعلى استعلامات مصححة بعناية ... انه مراقب للواقع دقيق بشكل خارق ، ومفاهيمه انما تنجم عن حاصل ملاحظاته وثمار تبحره التي كانت معممة بطريقة موضوعية) . (٥٥)

ونحن نستطيع أن نتعرف على أكثر من صفة علمية لابن خلدون من قولة لاكوست هذه ، من ذلك :

١. ان منهج ابن خلدون تجريبي .
٢. الواقعية المحسوسة .
٣. حداثة المنهج .
٤. الدقة المتناهية في مراقبة الواقع .
٥. بناء المفاهيم والمباديء على ملاحظات سيقت بطريقة موضوعية . وهذه صفات نحن نطلبها من باحث اليوم . فما بالك في تحققها لدى باحث بيننا وبينه مئات من السنين .

ومن هنا فان ما توصل اليه ابن خلدون في نظرياته الاجتماعية لا يعتبر (وسيلة إلى الاصلاح الاجتماعي بل هو نتيجة لتفكير منهجي سليم) (٥٦) . كما ان نظرة ابن خلدون كانت علمية خالصة لان علم الاجتماع في نظره لايهدف إلى غاية عملية بل إلى غاية نظرية) (٥٧) . والذي يشدنا إلى الاعجاب بهذين الرجلين هو ما نعرف عن

---

(٥٤) قدري طوقان ، مقام العقل عند العرب ، ص ١٨٩ .
(٥٥) لاكوست : العلامة ابن خلدون : ٢٠٢ .
(٥٦) و (٥٧) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ٣٣٨ .

جهودهما في هذه المجالات التي لاتمت إلى اختصاصيهما بشيء . وكل الذي دفعهما اليه – فيما يبدو – فضول علمي، وتصحيح لكثير من المفاهيم الخاطئة التي سادت عصريهما . وهذا الفضول يثير الاعجاب أكثر حين تجدهما يندفعان إلى مجالات اخرى هي أقرب إلى علم الجغرافية أو علم الاجتماع منها إلى الادب أو التاريخ .

* البيئة الطبيعية :

فهذا الجاحظ يبحث أثر البيئة في الشعوب حين يقرر ان لكل من التربة والماء والهواء تأثيراً في طباع البشر . ولاشك ان التحقيق العلمي الذي تجاوز فيه الجاحظ ادباء عصره هو الذي دفعه (إلى اعتبارات قيمة حول أثر البيئة في الشعوب وفي هذا يستند إلى قول بعضهم انه اذا فسد الهواء في ناحية من النواحي فسد الماء وفسدت التربة فعمل ذلك في طباع السكان على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد ياجوج وماجوج وقد رأينا ان العرب وكانوا اعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من تلك المعاني وربما الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صفة هؤلاء المغربين والانباط) (٥٧).

وفي كتاب الحيوان يضرب الجاحظ لذلك مثلا بأهل هاشم حين سكنوا الاهواز فتغيرت بذلك طبائعهم وشمائلهم ويعزى ذلك إلى أثر البيئة التي تغيرت عليهم (٥٨) .

هذا مايقرر الجاحظ عن أثر البيئة في البشر وطبيعته ومزاجه وخلقه وشكله ، وفي نفس الحالة يقرر ابن خلدون أثر البيئة الجغرافية في شكل البشر وطبعه بل هو يتعداه ليقرر ان ذلك يمتد أثره إلى طبيعة العمران البشري شمل السكان البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ، اذ الشمس لاتزال بافقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامتة ولاما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة فتبيض الوان اهلها ويتبع ذلك مايقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور) (٥٩) .

---

(٥٧) جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره . ١٣٨ – ١٣٩ .
(٥٨) انظر الجاحظ في كتاب الحيوان : ٤ / ١٤٠ .
(٥٩) ابن خلدون : المقدمة : ٨٤ .

ثم يضرب مثلا آخر على أثر الحر في طبائع البشر والوانهم بمثل ماتحدث به عن أثر البرد(٦٠).

وهكذا (والى البيئة الجغرافية في نشره يرجع السبب في اختلاف البشر في الوانهم وجسومهم وميولهم ونشاطهم العام وكثير من صفاتهم الجسمية والخلقية. وللبيئة الجغرافية في نظره دخل كبير فيما يميز المجتمعات بعضها عن بعض، من مقومات في التقاليد والعادات والعلوم والافكار وشؤون الاسرة ونظم الحكم والسياسة والاخلاق والانفعالات وسائر أنواع الاجتماع) (٦١). والى مثل هذا ذهب (منتسكيو).

وقد انتبه كثير من الباحثين إلى ماقرره ابن خلدون بشأن العلاقة بين البيئة وبين الانسان بل أكد بعضهم ان هذا الباحث يعتقد (ان للبيئة الطبيعية الاثر الاول في تكوين الامم واكسابها طبائعها وخصائصها، فالامم تختلف في الوانها ونشاطها وشجاعتها وكثرة عددها أو قلته وفيما فطرت عليه من الطبائع باختلاف مساكنها من وجه الأرض بين جبل وسهل وصحراء في منطقة باردة او حارة او معتدلة وفي بقعة خصبة أو قاحلة ...) (٦٢).

* النفس الانسانية

واذا كان الكثير مما أوردنا لايثير العجب فان مايدهش حقاً ان يقف الرجلان أمام النفس الانسانية وقفة أعمق مما يظن وهي ملاحظة ماينتاب الانسان من حالات او مشاعر لادخل للعقل الواعي فيها. وقد توصلا في ذلك إلى اقرار مبادىء معينة في (علم النفس).

وقف كل من الجاحظ وابن خلدون يتأمل بعض مايصدر عن الانسان من تصرفات أو ماينتابه من حالات تبدو وكأنها غير طبيعية فالجاحظ يؤمن ايماناً لايقطعه شك بما عالج به أستاذه النظام موضوع الجن وأثره (في نفس الساري في الصحراء في سكينة الليل. هو تحليل مبتكر دقيق العلاقة بالتفسير النفسي، بل انه اشبه مايكون بتحليلات علماء النفس في العصر الحديث) (٦٣) (وأصل هذا الأمر وابتداؤه ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت

(٦٠) انظر بشأن ذلك المصدر نفسه : ٨٣ .

(٦١) علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون، ٢١٢ — ٢١٣ .

(٦٢) ابن خلدون المقدمة ص ٥٤٠

(٦٣) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ : ٤٨ .

فيهم الوحشة ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعد عن الأنس استوحش ولاسيما مع قلة الأشغال والمذاكرة . والوحدة لاتقطع أيامهم الا بالمنى او بالتفكير والفكر ، وربما كان من اسبابه الوسوسة) (٦٤) . (فما أقرب هذا التعليل من تحليلات علماء النفس المعاصرين ، واي عقل يرفض مثل هذا التحليل المبني على كثير من المنطق ؟) (٦٥) .

ويبدو لنا ان ابن خلدون كان الصق من الجاحظ بالنسبة لموضوعات النفس الانسانية ، وذلك يعود إلى ان دراسته لظواهر الحياة الاجتماعية وتناوله لهذه المظاهر المختلفة هي التي قربته من هذه الدراسات (ويفهم من استعراض هذه الآراء والمعلومات ان ابن خلدون كان من الروحيين الذين يعتقدون بوجود روح منفصل عن البدن) (٦٦) .وهذا مايؤكده بقوله ان الانسان (مركب من جزأين احدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به ،ولكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني ،مدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية : الا ان المدارك الروحانية يدركها بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس . ولكل مدرك فله حواس بما يدركه) (٦٧) وهذه الاراء وان لم تكن جديدة تماما لأنها (لاتخرج من حيث الاساس عن نطاق الاراء الشائعة بين مفكري الاسلام في عهد ابن خلدون) (٦٨) الا أنها ملاحظات قيمة تدل على عمق تفكير الرجل ودقة ملاحظاته وطول وقفته امام النفس الانسانية .

ومن هنا لم يترك القارىء حائرا في تفسير مايقول بل هو يؤكده من خلال واقع معين ، يمكن ان يقوم دليلا على ادعائه فيقول (واعتبره بحال الصبي في اول مداركه كيف يبتهج بما يبصره من من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلا شك ان الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد والذ ، فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة ، لايعبر عنهما وهذا الادراك لايحصل بنظر ولاعلم وانما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة . والمتصوفة كثيرا مايعنون بحصول هذا الادراك للنفس بحصول هذه البهجة (٦٩) ويبدو لنا ان ابن خلدون لم يخرج في

---

(٦٤) الجاحظ : الحيوان : ٦ / ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٦٥ صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ : ٤٨ .

(٦٦) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ٤١٥ .

(٦٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٧ .

(٦٨) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ٤١٩ .

(٦٩) ابن خلدون : المقدمة ٥١٧ .

كل من الحالتين عن الحديث عن النفس، الا أن عمق الفكر ودقة الملاحظة اوصلاه إلى التفريق بين مايدرك بحاسة، وقد مثل له بحال الطفل، وما يدرك بالذات من غير حاسة، وقد مثل له بحال المتصوفة وهو يرى ان تحقق اللذة في النفس يكون اكثر عن طريق الاحساس الذاتي بغير واسطة (اي بغير حاسة). وهذا دون شك مايؤكده الواقع، فان جلال الروح عند المتصوفة والذي يحقق عندهم روعة الحب في الله لايتحقق — فيما تقول اخبار المتصوفة — الا عن طريق (كشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية كلها) كما يقول ذلك ابن خلدون.

وفي مثل هذا التفسير النفسي يلتقي الجاحظ مع ابن خلدون، من خلال المشاهدة والتجربة ايضا. وانظر اليه كيف يعلل تعليلا نفسيا، مايجب ان تفعله الام حين تنوم طفلها فيقول: (فان الصبي يبكي بكاء شديدا متعباً موجعاً فاذا كانت الام جاهلة حركته في المهد حركة ثورته الدوار او نومته بان تضرب يدها على جبينه، ومتى نام الصبي وتلك الفزعة او اللوعة او المكروه قائم في جوفه ولم يعلل ببعض مايلهيه ويضحكه ويسره حتى يكون نومه على سرور فيسري فيه ويعمل في طباعه ولايكون نومه على فزع أو غيظ اوغم فان ذلك مما يعمل في الفساد) (٧٠).

(الا نستشف من هذه الفقرة حديثا عن العقل الباطني وعمايتراكم منه من مشاعر لاواعية لها اثرها في تصرفات الانسان، تتحكم به عن غير ادراك منه وتؤثر حتى في علاقاته بالآخرين؟ أو لانجد ايضاً في تحليله مفهوماً عصريا في منهج التربية أيضاً حيث يطلب من الام ان تمسح عن نفس طفلها اللوعة بما يلهيه ويبعث في نفسه السرور لئلا ترسب في قرارته تلك اللوعة وتفسد فيه الطباع) (٧١).

ولاشك ان ماتوصل اليه الرجلان يشكل جانبا من جوانب الوقفة الدقيقة التي لاتعدم (الصفة العلمية) وهي جوانب تلتقي احياناً مع ماتوصلت اليه نظريات علم النفس في العصر الحاضر، وان كان ذلك لايمتلك ماتمتلكه النظريات الحديثة من عمق ومن بعد ايضاً. فاذا اخذنا فارق الزمن بنظر الاعتبار فاننا سنضع هذه الاراء والملاحظات في مكان لاشك انها ترفع صاحبيها الى جلال القدر وسموه.

---

(٧٠) الجاحظ : الحيوان ١ / ٢١٧.

(٧١) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ ٤٩ — ٥٠.

ـ مصادر ومراجع البحث ـ

١ . أحمد أمين : ضحى الاسلام . القاهرة ب.ت.ج١
٢ . ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون . القاهرة ١٩٧٤ ترجمة ميشال سليمان .
٣ . الجاحظ : كتاب الحيوان : القاهرة ١٩٦٩ ج ١ ـ ٧ .
٤ . جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره . بيروت ١٩٦٨ .
٥ . جورج غريب : الجاحظ . بيروت ١٩٧١ ط٢ .
٦ . حنا الفاخوري : الجاحظ مصر ١٩٦٤ .
٧ . داود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ بغداد ١٩٦٠ .
٨ . ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون . مصر ١٩٥٣ .
٩ . شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب . القاهرة ب.ت.
١٠. صموئيل عبدالشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ بيروت ١٩٧٥ .
١١. طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، القاهرة ١٩٢٥ .
١٢. عبدالرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون . القاهرة . ب.ت.
١٣. عبدالله عبدالدايم : التربية عبر التاريخ . بيروت ١٩٧٣ .
١٤. علي عبدالواحد وافي : عبدالرحمن بن خلدون . مصر . ب.ت.
١٥. فكتور شلحت : النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ . القاهرة . ١٩٦٤
١٦. عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة . دمشق . ب.ت.
تاريخ الفكر العربي إلى الأمام ابن خلدون بيروت . ١٩٦٦ .
١٧. قدري حافظ طوقان : مقام العقل عند العرب . مصر ب.ت .
١٨. كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي . ج٣ط ٢ القاهرة ب.ت.
١٩. محمد عبدالله عنان : ابن خلدون . القاهرة . ١٩٣٣ .
٢٠. محمد عبدالمنعم خفاجي : أبو عثمان الجاحظ . القاهرة . ب.ت .
٢١. محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث . القاهرة ١٩٦٦ . ط ٤ .
٢٢. وديعة طه النجم : الجاحظ والحاضرة العباسية . بغداد ١٩٦٥ .